Quarterly refereed journal for studies & research (Educational & Human Sciences) No. 29

SSN (Print) 2596 – 7517
ISSN (Online) 2597 – 307X

FULL PAPER

الاقتصاد التضامني .. وتحدي الفردانية

Solidarity Economy... and the Challenge of Individualism

إعداد
أ.د.مسفر بن علي القحطاني
Prof.Dr.Mesfer bin Ali Al-Qahtani
Professor at King Fahd University of Petroleum and Minerals
Dhahran
Kingdom of Saudi Arabia
mesfer@kfupm.edu.sa

Abstract

This research explores the profound transformation in the social and economic fabric of modern humanity due to the rise of individualism, juxtaposed with the concept of a "solidarity economy." The author presents a historical overview of individualism, tracing its roots from the Enlightenment through modernity and postmodernity, culminating in its current peak during the Fourth Industrial Revolution, fueled by technological .and communication revolutions and globalization

The study discusses how economic shifts—especially those during industrial and capitalist eras—have intensified individualism, weakening communal bonds and eroding collective roles, from the family unit to the broader society. The concept of "surplus enjoyment" is introduced, paralleling Marx's "surplus value," illustrating how modern economies push individuals into endless .cycles of desire and consumption with little true fulfillment

In contrast, the paper advocates for the revival of solidarity-based economic models grounded in mutual support and communal participation. It references religious teachings—especially Islamic principles like zakat and communal labor—as frameworks that promote altruism, cooperation, and a redefinition of wealth as psychological rather than material. The Protestant ethic is also highlighted as a historical case of aligning religious values with .responsible capitalism

The research concludes with a call to restore ethical and human dimensions in economic and social relations, asserting that humanity cannot persist in a purely individualistic consumer illusion without eventually seeking meaning, purpose, and .connection with others

Keywords: economy - cooperation - social - individualism - .modernity- surplus enjoyment

.

. **المستخلص**

يتناول هذا البحث التحوّل العميق الذي طرأ على البنية الاجتماعية والاقتصادية للإنسان المعاصر في ظل صعود الفردانية، مقابل ما يُعرف بـ"الاقتصاد التضامني". يستعرض الكاتب السياق التاريخي للفردانية، التي بدأت في الظهور منذ عصر التنوير وتبلورت مع الحداثة، وصولاً إلى ما بعد الحداثة والثورة الصناعية الرابعة، حيث بلغت الفردانية ذروتها مدفوعة بثورات التقنية والاتصال والعولمة.

كما يناقش البحث كيف ساهمت التحولات الاقتصادية، لا سيما في العصور الصناعية والرأسمالية، في تعزيز النزعة الفردانية، مما أدى إلى ضعف الروابط المجتمعية وتآكل الأدوار الجماعية، بدءاً من الأسرة وانتهاءً بالمجتمع. ويعرض الباحث مفهوم "فائض المتعة" كامتداد لمفهوم "فائض القيمة"، موضحًا كيف يتحول الإنسان في ظل الاقتصاد الحديث إلى مستهلك دائم وغير مشبع في دائرة لا نهائية من الإغراء والرغبة، في المقابل، يدعو البحث إلى استعادة قيم الاقتصاد التضامني الذي يقوم على المشاركة والتكافل، مستشهداً بالنماذج الدينية والإسلامية التي تعزز مفهوم الإيثار والتعاون، مثل الزكاة، والعمل التشاركي، وفلسفة الغنى النفسي لا المادي. كما يستحضر التجربة البروتستانتية التي ربطت بين الأخلاق الدينية والرأسمالية المسؤولة، ويختتم البحث بالدعوة إلى إعادة الاعتبار للبعد الإنساني والأخلاقي في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، مؤكداً أن الإنسان لا يمكنه الاستمرار في وهم الاستهلاك الفردي دون أن ينتفض بحثاً عن المعنى والهدف والارتباط بالآخر.

الكلمات المفتاحية: الاقتصاد – التعاون– الاجتماعي– الفردانية– الحداثة– فائض المتعة.

المقدمة:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

شهدت المجتمعات الإنسانية في العقود الأخيرة تحولات عميقة في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية، كان أبرز ملامحها صعود الفردانية وتراجع الروابط التضامنية التقليدية، لا سيما في ظل العولمة والتقنيات الحديثة التي عززت من مركزية الذات وسلوكيات الاستهلاك المنفرد. وفي خضم هذا التحول الجذري، برزت الحاجة إلى إعادة النظر في أنماط الإنتاج والتوزيع والتكافل، من خلال نموذج بديل يُعرف بـ"الاقتصاد التضامني"، الذي يستند إلى قيم التعاون والمسؤولية المجتمعية والمشاركة.

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى:

1- تحليل الجذور التاريخية والنظرية لصعود الفردانية في المجتمعات الحديثة.
2- إبراز دور العوامل الاقتصادية، خاصة الرأسمالية الصناعية وما بعدها، في تعزيز الفردانية.
3- مناقشة مفهوم "الاقتصاد التضامني" كبديل إنساني وأخلاقي للنموذج الفرداني السائد.
4- توضيح دور الدين (وخاصة الإسلام) في بناء منظومة اقتصادية تضامنية قائمة على العدالة والتكافل.

- سؤال البحث الرئيس:

كيف أسهمت التحولات الاقتصادية الحديثة في تعميق النزعة الفردانية، وما إمكانية بناء نموذج اقتصادي تضامني يعيد التوازن بين مصلحة الفرد والصالح العام؟

- الدراسات السابقة:

تناولت العديد من الدراسات موضوع الفردانية من منظور فلسفي أو اجتماعي، كما درست بعض الأدبيات مفهوم "الاقتصاد الاجتماعي" أو "الاقتصاد التشاركي". ومن أبرز الإسهامات النظرية:

دراسة ماكس فيبر حول العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية، وأطروحات إميل دوركايم حول تأثير المجتمع في تشكيل سلوك الفرد، ونقد جيل ليبوفتسكي لعصر الإغراء والاستهلاك المفرط. وهذه من أهم الدراسات الكلية والعميقة في هذا الموضوع، أما الدراسات المعاصرة القريبة من هذا الموضوع، فمنها:

- بحث:" الاقتصاد التضامني ودوره في تحقيق التنمية المستدامة، دراسة الحالة المصرية، للباحث الدكتور ماجد الشرقاوي، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، مصر، العدد 74 ديسمبر 2020.
- مؤلف جماعي : "الاقتصاد الاجتماعي والتضامني، ورهانات التنمية العادلة"، تنسيق طاهر بكني، وصديق عبدالنور، طبع بدعم مؤسسة هانس زايدل، 2020.
- أطروحة الهادي عبدو أبوه : "الاقتصاد التضامني والتنمية الاجتماعية الامكانيات والواقع في موريتانيا"، اطروحة دكتوراه جامعة بوبكر تلمسان، الجزائر، 2014.
- بحث: "الاقتصاد الاجتماعي التضامني إطار مفاهيمي ودعوة للاعتماد" الدكتور أحمد خلف حسين، مجلة العلوم القانونية بجامعة بغداد، عدد (5) 2018. وغيرها من الدراسات جزئية حول هذا الموضوع.

والفارق بين كل تلك الدراسات والأبحاث هو أني جمعت بين الاقتصاد التضامني وتحديات الفردانية في سياق معاصر متسارع، وهذا المجال لا يزال يحتاج إلى مزيد من المعالجة، وهو ما يسعى هذا البحث إلى تقديمه.

- منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي النقدي من خلال تحليل الأفكار والسياقات التاريخية والفلسفية والاجتماعية ذات الصلة بالفردانية والاقتصاد التضامني، ويستعين بنماذج دينية وتجريبية لإبراز البدائل الممكنة، مع دمج مقاربة سوسيولوجية لفهم التغيرات في بنية العلاقات الإنسانية والاقتصادية.

- خطة البحث:

قسمت البحث إلى ثلاثة مطالب وخاتمة:

المطلب الأول: لمحة تاريخية عن الفردانية المعاصرة.

المطلب الثاني: الفردانية، وأثرها في التضامن الاقتصادي.

المطلب الثالث: أثر الدين في الحدّ من الفردانية وتعزيز التضامن الإنساني.

وخاتمة وتوصيات في نهاية البحث. وأرجو أن أقدم في هذه الوريقات ربطا واقعيا بين حاجةٍ مجتمعية للتعاون والتضامن الاقتصادي، وبين نزعة فردانية تحاول وضع العصا في عجلة هذا الاحتياج البشري.

المطلب الأول: لمحة تاريخية عن الفردانية المعاصرة:

هيمنت على التاريخ البشري منذ القدم النزعة الجماعية والوصاية الاجتماعية الملزمة للفرد، فلا حياة ولا وجود للفرد إلا بجماعته التي ينتمي إليها، واستمرت تلك العلاقة التي تعلو فيها روح المجتمع ويتضامن أفراده فيما بينهم لأجل كيان المجتمع أو الدولة أو القبيلة، واستمرت تلك النزعة المحافظة على كيانات المجتمع دون اعتبار للفرد قرونا طويلة، حتى في عصر الإغريق بنزعته الديمقراطية؛ كانت حرية الفرد مختزلة في الطبقة الارستقراطية فقط، بينما الفرد العادي بقي مكبلا داخل العقل الجمعي، وعندما أراد سقراط أن يخرج من ذلك القيد عوقب بالقتل انتصارا لأعراف الجماعة وعقلها الكلي.

لم تظهر استقلالية الفرد في تفكيره واختياراته بحرية إلا مع بداية القرن العشرين، ولا يعني هذا أن العالم قبل ذلك لم يشهد محاولات كثيرة للفردانية، بل كانت هناك ومضات بسيطة في تاريخ المسيحية وإبان عصر النهضة، ولكنها كانت ناقصة وفي مجالات محددة، فالكنيسة التي عززت في الفرد العزلة والرهبانية معترفةً بفرديته، قاومت في آنٍ واحد إعطاء الفرد حريته في أن يقرأ ما يشاء أو يصور الفنان ما يختار أو أن يجهر الفيلسوف بما يعتقد، وباتت كل المحاولات التي جاءت مع هوبز وروسو في العقد الاجتماعي تمردا على الكهنوت الديني أو منعا لاستبداد السياسي، لكنها كانت أفكارا تعمّق سلطة الدولة والإرادة العامة على حساب حرية الفرد واستقلال أوسع في اختياراته، الشاهد من هذه المسيرة التاريخية للفردانية؛ أن أفكارا لجون لوك ثم هيجل ثم نيتشه وسارتر وبقية فلاسفة الوجودية والبراغماتية أعادت تمكين الفردانية وبسط نفوذها فكريا في المجتمع الأوروبي، وتضاءلت نظريات دوركايم، التي قامت على هامشية الفرد في فهم الظاهرة الاجتماعية وصناعتها فهو مجرد خاضع لقوة المجتمع وموضوعيته فيستسلم الفرد لها دون تأثير.(فياض، 2018: 18-22).

فالفردانية المعاصرة في هذا السياق التاريخي كانت ولا تزال مفهومًا ملتبسا عند التحديد والتعريف، فقد حاول فريدريش هايك الوصول لمعنى محدد، لكنه وجد عددا من المفاهيم حسب الحقب الزمانية، والاختلاف العفلسفي العميق بين الانجليز والفرنسيين والألمان، وبعيدا عن هذا الجدل الفلسفي في حقيقة الفردانية، فقد خلص بأن الفردانية الحقيقية – كما أراداها- أنها:"نتاج العقول الحرة التي تتحكم في حياة الفرد" (فريدريش، 2022: 19-53). وهذا ليس التعريف الذي ارتضيه، ولكن سيفيدنا في هذا السياق القول أن :" الفردانية هي النظام الحر الذي يتحكم بالفرد في مجالاته المتعددة" فهي ديمقراطية يتبعها في السياسة، ورأسمالية في الاقتصاد، وليبرالية في الشأن الاجتماعي، وكل تلك المصطلحات مرجعها في الواقع يعود إلى نظام يعيشه

الفرد يمنحه إرادة الاختيار مستقلا عن أي حدود مسبقة، متيحا للدولة دور وضع تلك الحدود المصلحية لحرياته المتعددة.

لقد كانت هناك عوامل كثيرة بزغت بفكرة الفردانية للسطوع الباهر كما هي عليه في عصرنا الحاضر، إلا أني في هذا المقال سأركز على الجانب الاقتصاد في هذا المقام.

فالاقتصاد كان أحد الأسباب الجوهرية والواقعية في هذا التحول نحو الفردانية الجديدة، التي تطورت بشكل كبير بفعل الوفرة الاقتصادية، فمع التطور الصناعي الكبير الذي ظهر في القرن التاسع عشر، والتطور الكبير في ميادين التجارة والصناعة والعلم، ومن ثمَّ انعكس ذلك على شؤون السياسة والاجتماع، انتصرت حينئذ مدينة الأرض على مدينة السماء (الكنيسة)، وتفككت الأسرة بفعل الانتقال من الريف والقرى الزراعية إلى المدن الصناعية، وحلّت بدلا منها الشركة والنقابة والجمعيات العمالية، فتعززت الفردية وظهر منطق المصلحة الفردية، ثم جاءت النزعة الانسانوية بعد (موت الإله) وتحكّم العلم في رؤية الانسان للحياة، لتصبح هذه المركزية للفرد عهدا جديدا للطور الاقتصادي بشهادة العلم وانتصار الانسان الجديد.(الجابري، 2005: 173).

المطلب الثاني: الفردانية وأثرها على التضامن الاقتصادي:

خلال مسيرة الانسان النضالية لا ثبات حريته؛ ظهرت الليبرالية التي كانت تدعو للفكاك من كل القيود الشمولية، ولكن نتائجها لم تكن كذلك، فقد تحوّل الانسان الى جزء من آلة اقتصادية وعسكرية وبيروقراطية ضخمة، تضاءلت فيها حريته واغترب عما كان ينتجه، بل إن منتجاته السلعية والفكرية عادت لتفتك به، وجاءت الاشتراكية محاولة نقد المجتمع الرأسمالي وإنقاذ الانسان من حالة الاغتراب والقهر والعبودية، إلّا أنها وصلت إلى النتيجة السابقة نفسها؛ إذ صهرت الأفراد في بوتقة واحدة؛ وهي الدولة والحزب الواحد، وجمّدت حياة الأفراد وقواهم الإبداعية لتجعل معيار كل عملٍ متميّزٍ معبّرًا عن الواقع الموضوعي، وعن إرادة الكل.(عابد، 2017: 244-255).

لم تكن الفردانية في تلك المسيرة إلا حاجة طبيعة لتحرّر الافراد من قيود وسلطة الجماعة المركزية، ورغبةً في استقلال الفرد ليفكر ويختار ويبدع، وتكاملت ميوله تلك مع ظهور الحداثة الجديدة بكل منتجاتها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. وبعبارة أخرى: أصبحت الفردانية حاكم جديد في عصر الحداثة تخضع لها كافة مؤسسات المجتمع الأخرى.

الجديد الذي أنتج نوعا مطوّرا من الفردانية؛ هو تلك التحولات التي حصلت بعد منتصف القرن العشرين، وهي تضاءل القوميات الأوربية بعد الحربين العالمية وكوارثها العميقة على الفرد والمجتمع، وظهور العلموية والعقلانية كمنهج تفسيري حتمي للأشياء، وتنامى الإلحاد، وخفوت صوت الأديان إلى لحنٍ يشدو بالتأملات والروحانيات الجديدة، وأسهمت ثورة الاتصالات والمواصلات في سرعة الإنتاج وتزايد الأرباح ووفرة المنتجات الاستهلاكية فوق الحاجة.

لكن أعظم ما حدث خلال السنوات الماضية من تحولات هائلة في الفردانية، هو التحوّل العظيم الذي جاء مع الثورة الصناعية الرابعة، وهي ثورة الانترنت الفضائي، وانترنت الأشياء، والمدن الذكية، والروبوتات المطورة، والذكاء الاصطناعي، حيث برزت الفردانية كشبح جديد ومخيف ومستقل وقوي ومتعجل دائما وجشع لا يشبع، وبناءً على تلك النزعات الثورية الجديدة؛ تعولمت الفردانية المابعد حداثية لتصل كل الأفراد بلا استثناء، وانتهى معها عصر السرديات الكبرى (الديمقراطية، الليبرالية، العلمانية، القيم الكلية ..) إلى سرديات صغرى على هيئة قصص فردية خاصة، تحدّد للإنسان قيمه وقوانينه وعلاقاته وهويّاته، بعيدا عن أي تأطير وتحديد تمارسه أي قوى مركزية إلا في حدود الضرورة الأمنية والسياسية.

أصبحت الأجيال الجديدة من جيل (z) ومن بعدهم، أجيال متفردة في صفاتها وطباعها، يميلون للعزلة حتى داخل الأسرة بينما علاقاتهم مفتوحة في مواقع التواصل الاجتماعي على آلاف من الشخوص الافتراضية في العالم كله، يمارسون حياتهم من خلال الجوال والايباد والتطبيقات في مجالات التعلم وطلب الطعام والحديث والترفيه والحب والجنس وكل شيء يستطيعون إليه سبيلا.

أنها لحظة تاريخية أن جعلت الزمان والمكان منضغطين في هاتف محمول بحجم الكف(توملیسون، 2008: 3)، بل واضيف على جون تيملسون صاحب هذه العبارة، وانضغاط الانسان أيضا مع الزمان والمكان.

هذه الحالة من تكدس الرغبات وتوفر الحاجات؛ ما جاءت إلا بسبب طغيان الأنا في الأخذ، والأنا في الكسب، والأنا في الاستحواذ، والأنا في التفرد عن الكل، حتى مع أقرب الدوائر له: الأسرة والأصدقاء.

أصبح لدينا ما يسمى:"فائض المتعة" كما سماه وطور مفهومه جاك لاكان المحلل النفسي الفرنسي المعروف.(طه، 2018: 356-357). وهو مصطلح مشهور استعمله الماركسيون فيما يسمى "بفائض القيمة" أي القيمة الزائدة التي ينتجها العامل ولا يأخذ مقابلها إلا الفتات من المال، بينما يستأثر صاحب

العمل بهذا الفائض من العمل ليحصل على فائض مستمر من الأرباح، ومن ثمّ نادت الاشتراكية بأن يكون الأجر مقابل العمل.

هذا الفائض من المتعة هو نوع من المقاربة الاقتصادية لفكرة فائض القيمة، وأعني بفائض القيمة، ذاك المفهوم الماركسي، الذي يعني في الأساس القيمة التي يضيفها العامل في وقت عمله الزائد عن الوقت اللازم لسد احتياجاته المعيشية التي يغطيها أجره، يمّثل هذا الفائض الربح للرأسمالي، حيث يستولي صاحب رأس المال على القيمة التي ينتجها العامل دون مقابل كافٍ، مما يعتبره ماركس مصدراً للاستغلال وتراكم رأس المال (مراد، 2021: 90)، تتحد هذه المقاربة في الاستغلال اللاشعوري للفرد لكي يسعى كل يوم دون شبع وراء متع لا تنتهي وتتجدد كل يوم، وفي الحقيقة لا يحصل إلا على القليل منها، ولكنها تعيش في حياته تحت صور لا تنتهي من الإغراء الساحر، الذي يجعله في سعي مستمر وبلا توقف.

وهو العنوان الذي سكّه الفرنسي جيل ليبوفتسكي عندما سمى هذا العصر بـ"عصر الإغراء" الذي يعيد تنميط العقل وإدمان النفس لخيارات حرة بلا إكراه، ومنتجات لا تقاوم، وإعلانات مثيرة على كل شاشات الهواتف والتلفزة حتى بين أخبار القتل أو الفياضانات والزلازل نجدها تظهر بكثرة في تسويق مثير لكريم مرطب، أو شراب غازي يطفيء العطش!(ليبوفيتسكي، 2018: الفصل الثاني).

إن فلسفة الفائض لها معانٍ عدّة، نجدها في الإسلام –على سبيل المثال– ترتكز على أمرين:

الأول: أن الفائض هو فضل من الله للإنسان في رزقه أو ماله، يجود به على غيره ممن لا يجد ما يكفيه، ومن ثمّ جاء تشريع الزكاة في الإسلام كحقٍ يأخذه الفقير والمحتاج من فائض المال الزائد، بعد التأكد من مرور عام كامل أن هذا المال فائض عن حاجاته؛ فحينئذ يمنحه بطيب نفسٍ لغيره، وتتسع دائرة الفائض في قول النبي صلى الله عليه وسلم :" إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ علَى كُلِّ شيءٍ" (صحيح مسلم برقم 1955). بحيث لا يتراكم هذا الفائض في ذات الفرد و يزيده تخمه وجشع وطغيان؛ وحتى وقت قريب كنت أشاهد في قريتي تشارك الجماعة في موسم الحصاد أو عند بناء البيوت، وهو نوع من التشارك التضامني الذي يعيد توسيع ثمرات العمل والمال بين أكبر قدر من الأفراد دون استغلال أو منّة.

الأمر الثاني: أن فلسفة الفائض في الإسلام لا تتمحور في الأشياء والماديات فحسب، بل أنها أعادة بوصلة معنى الغنى ذاته، وجعلت معنى الغنى الحقيقي هو غنى النفس وعدم سعيها اللاهث نحو الشراء والاستهلاك

والتكديس، وفي ذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام:" ليسَ الغنى عن كثرةِ العَرَضِ ولَكنَّ الغِنى غنى النَّفسِ" (صحيح البخاري 6446).

اعتقد أننا في حاجة ماسة في هذا الوقت من تخفيف غلواء الفردانية بشكلها المابعد حداثي، وتعزيز الفرد المتعاون، والفرد القيمي، والفرد الإنسان !

وهذا ما دعاني للتأكيد على أهمية الاقتصاد التضامني أو الاجتماعي في هذه الورقة؛ كبديل عملي واقتصادي عن الاقتصاد الرأسمالي الفرداني (النيوليبرالي)، وهو فرع من فروع الاقتصاد والعلوم الاجتماعية ويرتكز على العلاقة بين السلوك الاجتماعي والاقتصادي كما يُعد هجين بين القطاع التجاري الخاص والقطاع الثالث غير الربحي. فلا يوجد تعريف عالمي لهذا المفهوم ولكن منظمة العمل الدولية استخدمت تعريف له في مؤتمرها الإقليمي في أفريقيا لعام 2009م، مستخدمين مسمى:"الاقتصاد الاجتماعي"، واشارة الى هذا المفهوم بانه: "ما تقوم به المنظمات التي تنتج السلع والخدمات والمعرفة التي تلبي احتياجات المجتمع الذي تخدمه، من خلال السعي لتحقيق أهداف اجتماعية وبيئية محددة لتعزيز التضامن". ومن هذه الكيانات (التعاونيات وجمعيات المنفعة المتبادلة والشركات الاجتماعية)، فأكبر القطاعات التي تطبق مفهوم الاقتصاد الاجتماعي وتنمو بشكل كبير حول العالم قطاع التمويل، فتُنشأ في العديد من الدول البنوك الأخلاقية والتي تقدم التمويل الجماعي الأخضر، ومن أمثلته: ما يقدمه بنك جرامين في بنجلاديش، وبنك الاسرة في البحرين، وقد أُطلق مصطلح البنوك الأخلاقية على هذه البنوك لأنها تجمع الأموال من المدخرين والمستثمرين وتقرضها للمشاريع ذات القيمة الاجتماعية والبيئية العالية، مثل المزارع العضوية، وإعادة تدوير المنتجات والتعاونيات وما إلى ذلك. وتستخدم هذه البنوك ومنصات التمويل المعايير الاجتماعية والبيئية لاختيار المشاريع التي يمولونها.(اليوسف، 2022: صحيفة مال).

المطلب الثالث: أثر الدين في الحدّ من الفردانية وتعزيز التضامن الإنساني:

وبناء على ما سبق من دور كبير يقدمه الاقتصاد التضامني في الحدّ من غلواء الفردانية المعاصرة بوجهها الاستهلاكي، فإني أجد أن الدين من أهم العوامل الأساسية لتعزيز مشاركة الفرد مع غيره في مساهمات تضامنية، ومشاريع إنتاجية تحقق عوائد تسهم في تنمية المجتمع وسد العوز لدى الفقراء، إن من أهم التجارب الدينية في رفع كفاءة الإنتاج واخلاقيات العمل الاقتصادي، هي التجربة البروتستانتية التي شرحها ماكس فيبر في كتابه ذائع الصيت:" الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" الصادر في 1905، فكانت رسالته

الأساسية في الكتاب؛ أن حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) برؤيتها ورسائلها الجديدة، بعيداً عن الكاثوليكية وسيطرة الكنيسة بتعاليمها في أوروبا على مدار قرون ممتدة، ساهمت في وضع اللبنات الأساسية لإنجاح التجربة الرأسمالية في المناطق التي انتشرت فيها لأسباب تتعلق بتفسيراتها للكتاب المقدس، خصوصاً ما يتعلق منها بأخلاقيات العمل والثراء.

وكان دور الراهب الإصلاحي مارتن لوثر، جوهرياً في توجيه دفة الرؤية الجديدة، ليس فقط لأنه فتح المجال أمام فرص الثراء، وشجعه، ولكن أيضاً لأنه أضفى لمفهوم الفردية بُعداً جديداً كان من نتائجه توجيه الدفة نحو الاهتمام بالفرد في الدنيا، ومنحه حرية أكبر غير مقيدة إلا بتقوى الله ومراعاة تعاليمه دون رقيب أو تسلّط من قِبل مؤسسة دينية، وقد أدت هذه الفردية لظهور مفهوم جديد نحو العمل، وأهميته، باعتباره جزءاً من رسالة الإنسان على الأرض، وما يستتبعه من ثراء بطبيعة الحال طالما أنه لا يتعارض مع التعاليم الإلهية (البدري، 2020: عدد 25).

أما تعاليم الإسلام فيه تنضح بالكثير من الآيات والإرشادات النبوية التي تحث على العمل والإنتاج والإحسان للخلق، بل جسدت هذا المعنى من التضامن بقول النبي صلى الله عليه وسلم:" مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتَراحُمِهِم ، وتعاطُفِهِمْ . مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى" (صحيح البخاري 6011).

ولا ننسى أن القرآن الكريم قد حثّ على ذلك بنصوص صريحة عامة يدخل فيها التعاون الاقتصادي بين المسلمين، كما في قوله تعالى:" وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (المائدة: 2). وقال الله تعالى ايضًا:"قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا" (الكهف: 95). وأيضًا قوله تعالى:"وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي" (طه: 29 – 32). يلخص مقصود الشارع من التعاون والتضامن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية:" فإنَّ التعاون نوعان: الأوَّل: تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى: مِن الجهاد وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقِّين، فهذا ممَّا أمر الله به ورسوله. ومَن أمسك عنه خشية أن يكون مِن أعوان الظَّلمة فقد ترك فرضًا على الأعيان، أو على الكفاية متوهِّمًا أنَّه متورِّعٌ. وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع، إذ كلٌّ منهما كفٌّ وإمساكٌ.

والثَّاني: تعاونٌ على الإثم والعدوان، كالإعانة على دمٍ معصومٍ، أو أخذ مالٍ معصومٍ، أو ضرب مَن لا يستحقُّ الضَّرب، ونحو ذلك؛ فهذا الذي حرَّمه الله ورسوله. نعم، إذا كانت الأموال قد أُخِذَت بغير حقٍّ، وقد تعذَّر ردُّها إلى أصحابها، ككثيرٍ مِن الأموال السُّلطانيَّة؛ فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين كسداد الثُّغور، ونفقة المقاتلة، ونحو ذلك: مِن الإعانة على البرِّ والتَّقوى".(ابن تيمية، 2004: 68/28).

إن هذا الزمن الذي نعيشه اليوم؛ شئنا أم أبينا هو زمن الإبهار والإغراء، لذلك تتلاشى فيه التناقضات الصلبة، بين الحقيقي والمزيف، وبين الجميل والقبيح، وبين الواقع والوهم، وبين المعنى واللامعنى، وتصبح المتضادات "سائلة" كما هو تعبير سيجموند باومان. لقد بدأنا نشعر أنه بإمكان الإنسان أن يعيش بلا هدف ولا معنى في تعاقب وميضي وغفلة مسترسلة، وهذا شيء مستجد، ولا أظنه سيستمر طويلا، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش في وسط ذلك الوحل من الماديات دون أن تنتفض روحه وتتعلق بمعنى ينتشله نحو العلو، نحو الفضاء الرحب، نحو إنسانيته الأخلاقية؛ بل لن يجد الإنسان متعته ولذته الحقيقة إلا في معاني التشارك والعطاء دون انتظار مال يطرق حسابه البنكي، أو صور يضعها المعجبون في حساباته في مواقع التواصل الاجتماعي. إنها لذة الروح التي تعرف معنى التضامن التشاركي مع الأخر أيا كان، بل حتى لو كان هذا الكائن حيوانا أو نباتا أو جماد.

خاتمة البحث:

خلص هذا البحث إلى أن صعود الفردانية في العصر الحديث لم يكن مجرد تحوّل ثقافي أو فلسفي فحسب، بل جاء كنتيجة حتمية لتحولات اقتصادية واجتماعية عميقة، قادتها الثورة الصناعية والرأسمالية الحديثة وما تلاها من تطورات تكنولوجية متسارعة. وقد أسهم هذا المسار في تكريس نمط استهلاكي وفردي عزّز من عزلة الإنسان وتفكك الروابط المجتمعية، حتى داخل الأسرة.

وفي مقابل هذا التيار الجارف، برز مفهوم الاقتصاد التضامني كإطار بديل يستند إلى قيم المشاركة والتكافل والعدالة الاجتماعية. وقد بيّن البحث أن التجارب الدينية، خاصة في الإسلام، تحمل مضامين غنية تعزز من هذا النموذج وتدفع نحو توازن إنساني بين حرية الفرد واحتياجات المجتمع.

إن الإنسان المعاصر بحاجة ملحة إلى تجاوز حالة الاغتراب التي فرضتها الفردانية المتطرفة، من خلال استعادة المعنى في العلاقات الإنسانية والاقتصادية، والانفتاح على نماذج أكثر إنصافًا وتعاونًا، تعيد للإنسان كرامته ودوره الإيجابي في مجتمعه.

التوصيات:

- تعزيز ثقافة الاقتصاد التضامني عبر إدماج مفاهيمه في المناهج التعليمية والمؤسسات الإعلامية لتغيير النظرة النفعية المحضة إلى أخرى أكثر توازناً.
- إعادة الاعتبار لدور الدين في الاقتصاد، من خلال تفعيل آليات مثل الزكاة والوقف والتكافل الاجتماعي، بوصفها أدوات عملية لتحقيق العدالة الاجتماعية ومكافحة التهميش.
- دعم المبادرات التشاركية كالجمعيات التعاونية والاقتصاد المجتمعي، التي تتيح للفرد المشاركة الفعلية في الإنتاج وتوزيع العائد بشكل عادل.
- الحد من هيمنة النزعة الاستهلاكية عبر سياسات تنظيمية وتشريعية تقلل من التسويق المفرط وتعزز من الاستهلاك المسؤول.
- تنمية وعي الفرد القيمي والأخلاقي ليصبح أكثر استعدادًا للعطاء والمشاركة، لا سيما في بيئات الأسرة والعمل والمجتمع المحلي.
- تشجيع البحث العلمي متعدد التخصصات لفهم أعمق للعلاقة بين الفردانية والاقتصاد، واستكشاف نماذج بديلة قابلة للتطبيق في السياق المعاصر.

فهرس لأهم المراجع:

1. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم،(2004). جمع وترتيب مُحَّد بن قاسم وأبنه عبدالرحمن، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
2. البدري، مُحَّد عبدالستار(2020). مقال:" **ماكس فيبر وثقافة العمل في الأديان**، جريدة الشرق الأوسط، عدد 25 مايو 2020م.
3. توملیسون، د.جون(2008). العولمة والثقافة، نشر دار المعرفة ..
4. الجابري، مُحَّد عابد(2005). **في نقد الحاجة للإصلاح**، مركز دراسات الوحدة العربية.
5. عابد، نوره(2017). ***مفهوم الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر***، مجلة مقاربات فلسفية، عدد ديسمبر.
6. عبدالرحمن، طه(2016). **شرود ما بعد الدهرانية**، المؤسسة العربية للفكر والابداع، طبعة.
7. فياض، حسام الدين(2018). **مؤسس علم الاجتماع إميل دور كايم** .دراسة في علم الاجتماع البنائي، مكتبة نحو علم اجتماع تنويري، الطبعة الأولى.
8. ليبوفتسكي، جيل.(2018).**عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة**" نشر مركز نماء للبحوث، ترجمة حافظ أدوخراز،.
9. مراد، مُحَّد حلمي(2021).**المذاهب والنظم الاقتصادية**، وكالة الصحافة العربية، القاهرة.
10. هايك، فريدريش(2022). **الفردانية والنظام الاقتصادي**، ترجمة عمر فتحي، دار الأفاق، القاهرة،.
11. اليوسف، فيصل رجاء(2022). **مقال : الاقتصاد الاجتماعي**، صحيفة مال، 21 مارس.